بين فن التاريخ وفن الحرب

١ ـ خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

يعد خالد بن الوليد من أكبر قادة العرب فى عهد الفتوح الأولى ، وهو بلا منازع من أفذاذ الرجال الذين حالفهم النصر وأيدهم الظفر فى المعامع والحروب بلا استثناء .

ولم يذكر قط له التاريخ وقعة خسر فيها المعركة وهو قائدها ، حتى فى معركة مؤته التى وقعت فى السنة الثانية للهجرة فى شرق الأردن بين الطفيلة والكرك ، أنقذ خالد المسلمين ببطولته وإقدامه ، رغم تفوق الأعداء الأكيد وموت الذين تولوا القيادة على التعاقب عملاً بوصايا الرسول

وفى غزوة أحد كان خالد يقود خيالة قريش فبقى فى الميمنة يشاغل ربيئة المسلمين الموفدة لحماية الميسرة بالهجوم عليها من حين إلى آخر ، ويراقب سير القتال بين المسلمين وقريش إلى أن رأى ربيئة المسلمين تركت موضعها وسارعت للاشتراك فى الغنيمة . فهجم بخيالته ملتفاً وراء المسلمين وقاطعاً عليهم خط الرجعة ، فقلب نصر المسلمين إلى انكسار انتهى إلى انهزام المسلمين وجرح الرسول .

قلنا من الوقائع التى اشترك فيها خالد بن الوليد فى عهد إشراكه وإسلامه أن تلك الوقائع جميعاً انتهت إلى النصر المبين .

ومما لا شك فيه أن خالداً من أقدر قواد العرب على القيادة . فجدير بالضباط أن يدرسوا حركاته إن فى حروب الردة أو فى فتح العراق أو فتح سورية . ومن الواضح أنهم سيطلعون على الأسس القويمة التى كان يسير عليها ويرون فيها تنفيذ مبادئ الحرب التى لاتزال مرعية حتى يومنا هذا .

ولقد قال خالد قبل وفاته إنه شهد مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة . ولا نبالغ إذا قلنا إنه خرج من تلك الزحوف بأجمعها غالباً منصوراً .

١ — مصادر البحث :

من العسير جداً البحث فى أخبار الفتوح الأولى بحثاً يمكننا من الاطلاع على الخطط العسكرية والأسباب التى أدت إلى وضعها والنتائج التى أسفرت عنها الحركات . ذلك لأن القصاصين أو مدونى السير والمغازى أو مؤرخى الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح ، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلاً بالأسناد . وقد نراهم غير متفقين فى تدوينهم الأخبار على التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة ، ولا على مقدار القوة التى اشتركت فيها ، ومن المعارك ما لم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها . والحقيقة أن التاريخ العسكرى يثبت المعارك التى جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها ، وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء .

فالمعارك التى نشبت بين الجيش المكدونى بقيادة الاسكندر والجيش الفارسى فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة أقرب إلى الصحة من الوقائع التى نحن بصددها .

أما المعارك التى جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة ، والقتال الذى نشب بين القياصرة والقواد المطالبين بالعرش ، فأخبارها مفصلة فى كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة فى استقصاء الحوادث .

فمعركة (كانية) التى نشبت سنة ٢١٦ قبل الميلاد بين الجيش القرطاجى بقيادة هنبال والجيش الرومانى ، كانت ولا تزال مثالاً ينسج القادة العظام على منواله تعبئة الجيش فى ميدان المعركة ، وهى بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها .

والسبب فى تدوين أخبار هذه المعارك تدويناً صحيحاً مع أنها نشبت قبل الفتوح العربية بعدة قرون ، هو أن المؤرخين الذين أثبتوا أخبارها إما أنهم اشتركوا فيها فعلاً ، وإما أنهم قادوها بأنفسهم ، وإما أنهم عاشوا فى زمن وقوعها . فالقائد زينوفون

* وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

اليونانى الذى قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى بلاد اليونان راجعاً بهم إلى بلاده سجل حوادث تلك الرجعة فى كتابه « الزحف » (أنا باسيس Anbasis) وهذا الكتاب لا يزال مرجعاً ثقة للباحثين العسكريين . وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه فى بلاد جرمانية فى كتاب « الحروب الغالية » .

أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الغزوات النبوية وحروب الردة والفتوح التى تمت فى النصف الأول من القرن الهجرى إلا بعد انقضاء جيلين على أقل تقدير .

وأول من جمع الوثائق الباحثة فى الغزوات والفتوح الأولى عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية . فان عروة جمع تلك الوثائق فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان — أى بعد وفاة الرسول بستين سنة ، ودونها دون إسناد . ويلى عروة فى التدوين ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هجرية مقتبساً معلوماته من عروة . أما ابن هشام المؤرخ للسير النبوية فاستقى أخباره من ابن اسحق ، مع أنه توفى بعده بقرن ونصف قرن — أى سنة ٢١٣ هجرية . ويأتى بعده ابن سعد الواقدى الباحث فى حروب الردة والمدون للفتوح العربية فى العراق وفى سورية ، وتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، بعد أن عاش ٦٢ سنة . ويليه المؤرخ المشهور الطبرى وهو بلا منازع أول مؤرخ عربى أثبت الأخبار التاريخية بطريقة علمية وتوفى سنة ٣١٠ هجرية بعد الفتوح العربية الأولى بقرنين ونصف قرن على أقل تقدير .

والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبرى هو العمدة فى استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير . وهكذا يتضح لك أن رواة الفتوح أو مؤرخيها لم يشتركوا فى وقائع الفتوح أو أنهم لم يعاصروا أولئك الفاتحين ، بل إنهم دونوا أخبارها سماعاً أو نقلاً بعد مرور مدة غير يسيرة على الفتوح . وكان لزاماً أن تأتى الأخبار ناقصة ومشوشة ومتناقضة . حتى أمسى الباحث فيها لا يهتدى الى استنباط بعض الحقائق إلا بشق النفس . والذى يزيد البحث إشكالاً كثرة الرواة الذين استند اليهم المؤرخون فى تدوين الأخبار . وأنت تراهم يسخون برواية غثها ويسخلون بسمينها .

وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين الى الديوان الحجازى والرواة المنتمين الى الديوان العراق . وكذلك نجد تناقضاً فى الروايات التى ينقلها المضرى والربيعى واليمانى والقيسى . لأن كلا من هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة الوقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها .

٢ — دار الحركات :

إن الساحة التى جرت فيها الحركات تمتد من سواحل البحر الأحمر فى الحجاز وتنتهى فى أرض الدهناء التى تفصل بين مقاطعة الحسا ومقاطعتى العارض والسدير ، وهذه الساحة تتناول شمالى الحجاز وجبل شمر وبلاد نجد .

والأرض التى تتكون منها هذه الساحة صحراوية الوصف على العموم ، والمياه فيها قليلة ، والنابات لا أثر لها فيها ، وتتخللها واحات نبتت فيها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة . وقد تكونت فى المنخفضات التى تتصرف اليها مياه الأمطار بسهولة حيث تكثر الآبار الضحلة ، وتقطع الوديان هذه الساحة ، وتكاد تبدأ جميعاً من هضبة نجد المرتفعة فتجرى فى جهات مختلفة ، ويصب بعضها فى البحر الأحمر والبعض الآخر فى خليج فارس أو فى جهة الربع الخالى . والوديان يابسة على العموم وهى ضيقة ووعرة عند اجتيازها المناطق الجبلية وعريضة سهلة عند مرورها بالبادية .

وينبت فى بعض أنحائها شجر الأثل والشوك والطلح وغير ذلك من الأشجار التى تتحمل العطش . وعند ما تنزل الأمطار تجرى اليها المياه من كل جانب فتغطى الوديان سيول المياه الجارفة الجارية بسرعة ، وتصب إما فى البحر وإما فى الأنفدة الرملية .

والجبال فى المنطقة التى جرت فيها الحركات قليلة . وهى لا تتعدى سلسلة طويق فى نجد تمتد من الشمال الى الجنوب فى جبلين متوازيين ، ويشرف الجبل الغربى على الأنفدة الغربية بين نجد والحجاز . ويشرف الجبل الشرقى على رمال الدهناء الواقعة بين خليج فارس ونجد . والسلسلة جرداء ، لا نبت فيها ولا ماء . وفى القسم الجنوبى من منطقة العارض يفصل وادى حنيفة هذين الجبلين أحدهما عن الآخر ، فيجرى أولا من الشمال الى الجنوب بعد أن تصب فيه عدة شعب من الشرق والغرب ، وفى جنوبى الرياض يغير مجراه الى الجنوب الشرقى فيصب فى رمال الأحقاف

وما عدا سلسلة طويق نجد سلسلتين أخريين فى منطقة جبل

شمر وهما جبل أجأ وجبل سلمى ، وهما موازيان يفصل أحدهما عن الآخر وادى العش . ويمتد كلا الجبلين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرق . وجبل أجأ باتصاله بالجبال المنفردة الواقعة فى جنوب غربيه يكون سلسلة طويلة تمتد الى حرة خيبر فى الحجاز .

والسلسلتان حجريتان ارتفاعهما من ٥٠٠ الى ١٨٠٠ متر . والجبال المتفرقة التى تتشعب من هاتين السلسلتين تحيط بها الكثبان الرملية . والبادية الواقعة بين الحجاز وسلسلة طويق متكونة من هضبة مرتفعة يتفاوت ارتفاعها من ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ متر ، ويكتنفها بعض الروابى الحجرية المنفردة . وهذه الهضبة تنفصل عن هضبة جبل شمر بوادى الرمة الذى يبدأ من حرة خيبر ، ويجرى من الغرب الى الشرق ، وبعد أن يسقى بآبار منطقة القصيم الغنية يغير جهته الى الشمال الشرق الى أن يصب فى أرض السواد بجوار البصرة .

والوادى هنا أخطر الوديان الواقعة فى دار الحركات ، وهو يفتح خطوط الحركات بين الحجاز ونجد . وعند ما تقطع الوديان وشعابها السلاسل الجبلية تكون العقبات المضايق والمنعطفات التى تنساب فيها الطرق .

والساحة مملوءة بالأنقدة الرملية ، والكثير منها يتجه من الشمال الى الجنوب ، أو من الشمال الغربى الى الجنوب الشرق ، لذلك تعترض الوديان الطرق الممتدة من الغرب الى الشرق .

ومن جملة العوارض التى تتصف بها دار الحركات الحرات ، وهى الأراضى البركانية التى تكتنفها الحجارة الخامدة . وهذه الحرات واقعة الى شرق الحجاز ، وأخطرها حرة خيبر الواقعة فى شمالى المدينة مسافة بضع مراحل .

والبقاع الآهلة بالسكان فى هذه الساحة هى الواحات فى بطن الوديان أو فى الأرض المنخفضة التى انصرفت الى بطنها مياه الأمطار ، وأخطرها واحة المدينة فى وسط وادى الحمض ، ثم واحة بريدة وعنيزة فى وسط وادى الرمة . وواحات العارض الممتدة على طوار وادى حنيفة ، ثم واحات السدير وواحة خيبر وواحات جبل شمر .

وتمتد الطرق فى الوديان للاستفادة من المياه المتراكمة فيها فى زمن الأمطار من الآبار المحفورة على طوارها . وهذه الطرق تبدأ من المدينة ، ومنها مايتجه شمالاً ، فبعد أن يمر بخيبر يمتد الى وسط جبل شمر سالكاً السفوح الجنوبية لسلسلة أجأ ، ومنها مايتجه نحو الشمال الشرق الى أن يهبط الى وادى الرمة فيسلكه حتى يصل الى واحات نجد الغنية . ولا سبيل الى السير على خارج الطرق لوعورة الأرض وندرة الماء فيها .

(يتبع)

طه الهاشمى

من مصنع المحلة رأساً اليكم

بالبريد

يمكنكم الحصول على منتجات

شركة مصر للغزل والنسج

اطلبوا العينات والأسعار من

المكتب التجارى للشركة بالمحلة الكبرى

الدفع عند التسليم والاسعار معتدلة